مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 2 / العـدد: 01 (2014)، ص 70-90

إمارة تدمر والرومان (64ق.م - 273 م)

أ/ رمضاني أم هاني
قسم التاريخ/جامعة بوزريعة -2- الجزائر

إن ظاهرة الفتن والصراعات والحروب الداخلية التي يشهدها العالم العربي بصفة عامة ومنطقة الشرق بصفة خاصة وتدخل القوى الغربية لفك النزاع ومحاولة إيجاد حلول من خلال تدخلها في شؤون الدول العربية بهدف استتباب الأمن والسلام والقضاء على الحكم المستبد، يدفع بنا إلى محاولة معرفة الأسباب الحقيقية لهذا الصراع و الدافع الحقيقي لهذا التدخل والذي يعود إلى عهود موغلة في القدم.

إن شبه الجزيرة العربية مرت بمراحل تاريخية كبرى من خلال الأحداث والحروب التي شهدتها المنطقة والتي أدت إلى انهيار الممالك العربية مملكة تلوى أخرى حيث تم القضاء عليها من طرف القوى العظمى القديمة- الإغريق ثم الرومان والفرس وبيزنطة-، كما تناحرت فيما بينها من أجل إرضاء هذه القوى الكبرى . ولفهم أسباب سقوط الإمارات العربية على يد القوى الغربية منتهزة فرصة النزاعات الداخلية، يجب أن نوجه أنظارنا إلى طبيعة العلاقة السياسية التي كانت تربط منطقة شبه الجزيرة العربية ونخص بذكر مملكة تدمر وعلاقتها بالإمبراطورية الرومانية كنموذج، وذلك باستعراض لسير الأحداث التاريخية للعلاقة السياسية التي كانت بين تدمر وروما، وسوف نبين من خلالها السياسة التي انتهجتها هذه القوة العظمى للسيطرة على هذه المنطقة بغية استنزاف ثرواتها الطبيعية، والتحكم في المنافذ التجارة العالمية.

وقبل أن نتطرق إلى العلاقة السياسية بين إمارة تدمر والرومان يجب أن نعرف هذه المنطقة واثر موقعها الاستراتيجي في سير الأحداث التاريخية لاسيما التوجهات الاستعمارية المتعاقبة لمختلف القوى التي برزت في شرق الأدنى القديم، والتي فتحت شهيتهم للسيطرة عليها.

إمارة تدمر والرومان (64ق.م - 273 م)

فقد ارتبطت تدمر بعلاقات متنوعة مع مختلف الدول المجاورة بحكم موقعها، حيث تقع مدينة تدمر على مسافة 160كيلومترا شرق مدينة حمص، و تبعد 215 كيلومترا عن مدينة دمشق إلى الشمال الشرقي منها[1] استطاعت أن تحرز مكانة هامة من خلال سيطرتها على طرق التجارة[2].

وبسبب موقع المدينة بين الفرات والشام، وتمثل نقطة عبور اضطرارية، ومحطة قوافل بين البحر المتوسط والفرات، أصبحت تدمر متحكمة في شبكة من الطرق التجارية التي تربط السواحل السورية بآسيا والهندً. وتكمن الأهمية البالغة لمدينة تدمر بحكم موقعها الجغرافي بين مركزين أساسيين لتوزيع البضائع التجارية بين مدن وادي الرافدين والسواحل الفينيقية، ومن ثم السيطرة على أعظم خط تجاري يربط بين الشرق والغرب عبر صحاري العراق وسوريا، إذ يجتمع تجار أوربا وآسيا في سوق تدمر ويتبادلوا سلعهم التجارية، ولم تكن ملتقى للتجار من الشرق والغرب حسب، بل كانت أيضاً نقطة انطلاق للتجارة العربية الجنوبية نحو الشمال، ومن ثم فقد كونت موطناً مثالياً لاستقرار بعض القبائل العربية[3].

وقد عرفت عند الغربيين بـ (Palmyra)[*] الذين ورثوا هذه التسمية عن الرومان واليونان، وهي مأخوذة من لفضة (Palma) اللاتينية ومعناها نخل (نخلة)، وأن الاسكندر المقدوني لما هزمها أطلق عليها (Palmyra) أي مدينة النخل[4].

وقعت تدمر تحت أطماع اليونان ثم الرومان، بسبب ما تملكته من زمام التجارة، وما جمعته من الثروات التي تثير أطماع الطامعين فيها، إذ فتحها الإسكندر المقدوني بعد أن بدأ حملته نحو الشرق في نحو (336-323ق.م) وتمكن من الاستيلاء على بلاد الشام ومن ضمنها تدمر، وبعد وفات الإسكندر خضعت تدمر لخلفائه السلوقيين (323- 124ق.م) الذين سيطروا على بلاد الشام منذ عام 280ق.م، ولم يتخلى السلوقيون عن بلاد الشام للبطالمة، لان ذلك يعني قطع سبل الاتصال بالبحر المتوسط، وهذا يؤدي إلى حرمانهم من إنشاء الأساطيل الكبيرة والاحتفاظ بها في موانئهم السورية، فضلاً عن أن استمرار سيطرة البطالمة على بلاد الشام سيؤدي إلى عزل دولة

السلوقيين عن العالم الإغريقي، وهذا ما أدى إلى نشوب سلسلة حروب عرفت بـ(الحروب السورية)، وانتهت هذه الحروب لصالح السلوقيين.

واستفاد التدمريين من السلوقيين لاسيما بعد أن نجحوا في توحيد بلاد مابين النهرين وبلاد الشام، فنشط نتيجة لذلك طريق التجارة الدولي الذي يمر بالعراق وتدمر لمنافسة البطالمة الذين كانوا يريدون أن تمر التجارة الهندية عن طريق البحر الأحمر ومصر، وهذا ما دفع بالتدمريين الوقوف إلى جانب السلوقيين في حروبهم مع البطالمة(5).

وقد ارتبط تاريخ تدمر بتاريخ الرومان، ويتضح ذلك من خلال ما ذكره الكتاب الرومان، إذ واصل الرومان سياسة أسلافهم السابقة اليونانيين في محاولتهم السيطرة على بلاد الشام، للاستحواذ على ثرواتها وخيراتها، وقد نافسهم الفرس الفرثيين في محاولاتهم هذه، وهذا يعني أن دوافع الصراع بين الجانبين كانت دوافع اقتصادية، وتمكن القائد الروماني بومبي (106–48ق.م) من إنهاء الحكم السلوقي في بلاد الشام سنة 64ق.م وإخضاعها، وجعلها ولاية رومانية، وكانت تدمر تدير أمورها بصفتها إمارة مستقلة، ومنطقة محايدة بين الإمبراطوريتين المتصارعتين الفرثية والرومانية(6).

وكان أول ذكر للعلاقة بين مدينة تدمر والإمبراطورية الرومانية، حسب ما ذكره المؤرخ جواد علي، الذي أشار إلى خضوع تدمر للرومان دون تأكيد ذلك ولا متى حدث ذلك، غير أنه ذكر محاولة للقائد الروماني مركوس أنطونيوس (Marcus Antonius) (44-30ق.م) الاستيلاء على خزائن المدينة(7) أثناء حروبه مع (الأرشكيين)(**) سنة 41ق.م وأن هذا الأخير تعرض إلى هزيمة نكراء على يد التدمريين عندما أراد الاستيلاء علي المدينة وأخذ ما فيها من أموال وأشيائهم النفيسة، بعد اقتتال عنيف بين الطرفين، ويؤكد في الأخير دخول تدمر تحت نفوذ الحكم الروماني في أيام القيصر تيبيريوس (Tiberius)(14- 37م)(8)، والدليل على ذلك مراسيم الإمبراطورية والتي تتعلق بالرسوم الجمركية، وقد عثر في تدمر على قوائم ترجع إلى سنة 17م تبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدمرية (9).

إمارة تدمر والرومان (64ق.م - 273 م)

وقد كانت تابعة للرومان في أيام الإمبراطور فيسبستيان(Vespasien)(60-79م) غير أن هذا لا يعني أنها كانت خاضعة للرومان خضوعا تاما، فقد كانت الإدارة بأيدي أهل المدينة.وأن الحكم الروماني لم يتدخل في أمورها تدخلا فعليا[10].

لذا فقد كانت تدمر في القرن الأول الميلادي دولة ذات سيادة، ثم صارت بالتدريج تحت حماية الرومان، اتخذت لنفسها تنظيمات إدارية تشبه نظام المدن الإغريقية والرومانية[11].

أما عن السبب الذي أدى بدخول تدمر في دائرة النفوذ الروماني فيتمثل في عاملين متداخلين: يتعلقان بوجود الخطر الفارسي في الشرق، الذي تمثل في محاولات دائبة من جانب الفرس لقطع الطرق التجارية التي تصل الإمبراطورية الرومانية بتجارة الشرق الأقصى عبر آسيا الوسطى.

أما العامل الثاني فيتمثل: في تحول هذا الخطر إلى حروب كثيرا ما تقع على الحدود الفاصلة بين الإمبراطوريتين الكبيرتين حيث كانت تقع مدينة تدمر[12].

وقد حاولت تدمر أن تقف موقف الحياد بين صراع الدولتين الفرس والروم، وتمكنت من ذلك فترة زمنية طويلة، إذ من مصلحة الدولتين المتنافسين وجود مدينة محايدة تفصل بينهما، حتى يتمكن تجار الدولتين من التبادل التجاري في تدمر الدولة الموجودة بينهما[13].

وحين وقعت تدمر تحت النفوذ والسلطة الرومانية، تأثر أهل تدمر بالتنظيمات القانونية والإدارية الرومانية، وبدأ النظام يتجه نحو النظام الملكي والإمبراطوري في الحكم[14].

في سنة 130 ميلادي زارها الإمبراطور الروماني هادريان (Hadrien) (117-138م) ومنحها لقبه بحيث أصبحت تعرف باسم هادريان بلميرا (Hadriana Palmyra) أو مدينة هادريان (Polis Hadriana)[15].

وبذل عناية معتبرة بها، حتى قيل فيه أنه مؤسس المدينة الثاني، فاعتنى بها عناية خاصة بحماية الطرق البرية التي تصلها بنهر الفرات الذي يعتبر من شرايين التجارة العالمية في المنطقة في ذلك الوقت [16].

وقد أعطى هذا الإمبراطور أهل تدمر حقوق الرومانيين، ومنحهم استقلالا ذاتيا، متبعا سياسة أغسطس السلمية، وسمح لمجلس شيوخهم أن يقرر الضرائب التي يراها مناسبة، ثم أعفيت تجارتها من الضرائب، فأدى هذا إلى ازدهار تدمر، وقدموا للرومان قوات من الخيالة التي كانت تحارب بالنبال، واتسع نشاطهم التجاري [17].

وزادت القوافل الوافدة عليها والصادرة منها خلال القرنين الأولين للميلاد [18]، وقد منحت تدمر درجة المستعمرة رومانية عليا، فاكتسبت بذلك حق الامتلاك التام والإعفاء من الخراج، والحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة. و يقال منحت هذه الدرجة في أيام هدريانوس على رأي أو في أيام الإمبراطور سيتيميوس سيفيروس(Severus Septimius) (193-211م) على رأي آخر[19].

وكانت تتمتع بهذه المنزلة في عهد كراكلا (Caracala)(211-218م) كذلك، ومنحها هذه الدرجة(مستعمرة) لا يعني انها صارت مقاطعة رومانية مئة بالمئة، بل كانت في الواقع حكومة مستقلة ذات سلطة واستقلال في إدارة شؤونها خاضعة خضوع شكلي لحكم روما[20]. فأصبحت بذلك لها وضع الولايات الرومانية، وبداية من القرن الثالث الميلادي أصبحت ولاية رومانية رسمية، ولكن روما اكتفت بالتبعية الاسمية فقط تاركة لها استقلالا إداريا يصل إلى درجة الحكم الذاتي[21].

ولسلطان روما على تدمر ، استفاد الرومان من المحاربين التدمريين وكونوا فرقا من الجنود التدمريين المرتزقة الذين التحقوا بالجيش الروماني، فاستفادوا منهم في قتال القبائل الغازية بصورة خاصة وفي القتال في البوادي لخبرتهم بها ولقدرتهم على القتال في هذه المواضع وتمكنهم منها، كما استعملوا في حماية الطرق ومصالحهم من لصوص، كما استخدموهم في قتال الفرس ومن كان في خدمتهم من الأعراب [22].

كان لتجدد الحرب بين الفرس والرومان وتأسيس دولة الساسانيين في فارس سنة 226م أثره في إتباع شأن أسرة عريقة في تدمر وزعيمها الذي يدعى

أذينة(Odenatus)، الذي استفاد من انتصار الرومان على الفرس فوقف إلى جانب الرومان وحالفهم سنة 262م، إذ كان ضروريا على التدمريين أن يختاروا الانضمام إلى إحدى القوتين الكبيرتين في ذلك الوقت. وقد استفادت أسرة أذينة(Odenatus) من هذا التحالف حيث كسبت ود القياصرة وعطفهم فأنعم عليهم بالألقاب والأوسمة وبالمال في بعض الأحيان، وبالقوة والمعونة وهي غاية كل سيد القبيلة(23).

فأظهرت تدمر موقفا إيجابيا إزاء الرومان، ففي تلك الفترة كان الإمبراطور الفارسي شابور الأول(*) يغزو قسما كبيرا من سوريا، ويأسر الإمبراطور الروماني فاليريانوس(Valerianus)(*253-260م*)(**) ، وهناك من يذكر أن فاليريانوس قرر إرسال حملة ضد الفرس الساسانيين في سنة 259م ، إلا أنه انهزم وسقط أسيرا في يد الفرس الذين استطاعوا أن يستولوا على أنطاكية (24)، وهنا يتدخل "أذينة " أو أوديناتوس(Odenatus) عند الرومان، وينجح في مطاردة شابور (25).

خصوصا وأن سيد تدمر تلقى إهانة من شابور عندما أرسل إليه هدايا، فقام هذا الأخير برميها في النهر، فأثار هذا التصرف حفيظة ملك تدمر، فجمع فرسان بلاده ومن بقي من جيش فاليريانوس (Valerianus) (*253-260م)، وهناك من يذكر أن الإمبراطور جالينوس*(Gallinos) (253-268م) *هو الذي جعله قائد على القوات المتبقية من جيش فاليريانوس وأمره صد الفرس ومطاردتهم من بلاد الشام*، وزحف بهم على الفرس(26)، وكسرهم وطاردهم واسترجع جزء من الغنائم، فقدر الرومان لأعماله، واحتفل الإمبراطور في روما بهذه الانتصارات ومنحوه لقب "Orientus Dux"(27) التي تعني درجة قائد عام على جميع عساكر الشرق(28).

أصبح أذينة(Odenatus) منذ سنة 260م يتصرف بصفته ملك الملوك على شرق الإمبراطورية الرومانية والقائد العام لجيش الإمبراطورية في ساحات القتال(29)، حيث قام بعدة عمليات عسكرية ضد القوطيين (Les goths) في الأناضول (Anatolie) وضد الفرس لحسابه وتصرف من تلقاء نفسه، فاستولى على مدينة الرها ونصيبين، وصد حملات الفرس لمرتين فحاول احتلال طيسفون للمرة الثانية إلا أننا لا

نعلم متى، وهذه الحرية الكاملة في التصرف وقوة جيشه المتنامية التي استطاعت أن تصد القوة العظمى الثانية بعد روما أصبح يمثل تهديد حقيقي لروما، مما جعلها تفكر في تقليم أظافر هذه القوة المتنامية في شبه الجزيرة العربية مثل ما فعلت مع إمارة الأنباط[30]، ولعل" أذينة "كان يستهدف من هذه التصرفات تأمين السيطرة على طرق التجارة الهندية وبلاد مابين النهرين التي اضطربت بعد ظهور الساسانيين[31].

ولكن مع ذلك، فإن السياسة الرومانية اتجاه تدمر، كانت مبنية بطبيعة الحال على المصلحة الرومانية في المقام الأول، وعلى هذا فحين شكّت روما في بعض تصرفات أذينة(Odenatus) قامت باغتياله في مدينة حمص[32] هو وابنه الأكبر "خيران"(Hairan) سنة 267م، فهل كان القاتل يعمل حقيقة لحساب نفسه أم كان يعمل لحساب غيره؟ ومن هؤلاء المستفيدون من مقتل أذينة(Odenatus) يا ترى؟[33]، ولكن الكثير من الباحثين يرجحون عملية الاغتيال تلك إلى روما، وأن مقتله كان بدسيسة من الرومان لشهرته التي حضي بها، كما أشار بعضهم إلى "زنوبيا" التي لعبت دورا في قتله، فانتقل الحكم إلى زوجته " زنوبيا" وصية على أنها (وهب اللات بن أذينة) وحكمت باسمه[34].

وبانتقال الملك إلى ابن "اذينة " (وهب اللات) والذي كان يدعى باليونانية أثينودورس(Athenodorus) والذي كان قاصرا، فتولت أمه "زنوبيا الوصاية عليه. وكانت "زنوبيا" تسعى إلى توسيع تجارة تدمر، وتطمح إلى إنشاء دولة كبرى، فأخذت تتصرف بحكمة ويقظة للوصول إلى أهدافها، فوسعت سيادتها على بلاد الشام ثم فيما بعد على مصر[35] مستغلة الظروف والأزمات السياسية الداخلية التي كانت تعاني منها الإمبراطورية الرومانية، فأرسلت حملة بقيادة "زبداي" لغزو مصر، وتامين سيادتها على الشرق الأوسط والسيطرة على تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط[36]، وليس من المستبعد أن يكون قد جال بخاطرها مشروع إقامة مملكة مستقلة معادية[37].

لقد أدركت زنوبيا(Zenobia) بذكائها وفطنتها أن أعداء تدمر إنما هم الرومان، وتأكد لها ذلك حينما أرسل الإمبراطور جاليانوس (Gallianos) (253-

268م) بجيش لاحتلال تدمر والقضاء على زنوبيا(Zenobia) قبل أن يستفحل خطرها، متظاهرا بأنه يريد محاربة الفرس، إلا أن الملكة العربية سرعان ما اكتشفت السر من وراء تلك الحملة[38]، فتصدت لذلك الجيش، وانتصرت عليه انتصارا حاسما وقتل "هرقليانوس" قائد الجيش الروماني في هذه الموقعة[39].

ووقفت "زنوبيا"، بعد هذا الانتصار تترقب الأحداث وكذا رد فعل روما فلما بلغها مصرع جاليانوس سنة 268م، وانتقال عرش الإمبراطورية المجزأة إلى ماركوس أوريليوس كلوديوس (Aurelianus Claude II)(268-270م) حيث تعرضت روما لغزو القبائل الجرمانية والقوطية، والشرق مراقب من طرف الملكة زنوبيا (Zenobia) التي تتحين الفرص لانتهازها وخاصة أن روما منشغلة في محاربة والتصدي للغزو القوطي الذي استولى على البلقان وجزر البحر الايجي ومدن آسيا الصغرى[40]، وخروج الحاكم الروماني بروبوس (Probus)(272-282م)[**] من مصر لمطاردة القراصنة بحرا، وأمام هذه الأوضاع المزرية التي كانت تعتصف بأمن روما، سارعت" زنوبيا" إلى توجيه جيش كبير العدد يقدر بـ سبعين ألف (70000) مقاتل إلى مصر[41]، ودخلتها حيث قاتل الرومان قتالا عنيفا بقيادة بروبوس(Probus)(272-282م) الذي عاد إلى مصر ولكنهم انهزموا في النهاية في معركة ايماس(Emèse) سنة 272م، وضمتها إلى تدمر[42].

وقد تألف جيش زنوبيا(Zenobia) من مقاتلين من تدمر وسوريا وآسيا الصغرى[43]، ومن العناصر العربية المستوطنة في المدن فضلا عن الأعراب الذين كانت ترى أنهم عمادها في القتال وسندها في الحروب[44] بقيادة زابداس (Zabdas) قائد جيوشها الذي برزت بالفعل مواهبه العسكرية في فتح مصر[45].

وانتهى الأمر باتفاق بين "زنوبيا" والرومان على أن تكون مصر مشتركا بينهما، فوافقت روما على بقاء جيوش تدمر في مصر، مقابل اعتراف تدمر بسيادة الرومان عليها[46].

وبعد وفاة أوريليوس كلوديوس (Aurelianus Claude II)(268-270م) في سنة 270م في سيرميوم(Sirmium) نصبوا مجلس الشيوخ أخاه، لكن الجيش

طالب بـ أورليانوس(Aurelianus)(270-275م) [*] إمبراطورا لروما، وقد تم له ذلك[47]، وقد تم العثور على عملة تدمرية ضربت في الإسكندرية في نفس السنة التي اعتلى فيها الإمبراطور الروماني أورليانوس العرش[48]، وعلى وجه هذه العملة صورة القيصر أورليانوس بجانب صورة "وهب اللات" ابن "زنوبيا"، مما يدل على الحكم المزدوج بينهما[49].

لقد شعر الرومان بخطر توسع التدمريين والتطور السريع لقوتهم العسكرية وتنامي نفوذهم السياسي، فأسرع الإمبراطور الروماني "أورليانوس" إلى توطيد سلطته وتأمين حدود الإمبراطورية على الدانوب، ثم وجه سنة 271م ضربة عسكرية إلى جيش تدمر في مصر فحطم قوتها [50]، ولعل أخطر النتائج التي تمخضت عن فقدان مصر، أن زنوبيا(Zenobia) بدأت تفقد الثقة بنفسها وبجيشها[51]، وفي معركة فاصلة عند مدينة إنطاكية(Antioche) كانت زنوبيا على رأس الجيش، أما القيادة فكانت لقائدها "زبداي" [52]، وتحقق النصر في بادئ الأمر، وشتتوا شمل الجيش الروماني، فأمر القيصر جنوده بالرجوع ليوهم التدمريين، أنهم قد فروا فإذا ساروا في أثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتهم بهجوم كاسح، وهذا ما حدث فعلا وانهزم التدمريون هزيمة منكرة[53].

مما اضطرت "الزباء" أو زنوبيا إلى ترك إنطاكية لـ اورليانوس(Aurelianus) (270-275م) ليس بسبب هزيمة فحسب، بل لأن أهل أنطاكية كانوا قد مالوا إلى جانب الرومان بسبب وجود جالية يونانية ذات نفوذ في المدينة تفضل الحكم الروماني على حكم الشرقيين[54].

حاول "زابداي" قائد قوات "زنوبيا" إيقاف تقدم الرومان فلم يتمكن من ذلك، فتراجع الى حمص، وهناك تلقت قوات تدمر ضربة موجعة جعلت الملكة تتحصن داخل أسوار عاصمتها[55]، واستنجدت بالفرس فلم ينجدوها، وبالعرب فلم يسعفوها[56]، وأدرك قيصر أن النصر الحقيقي لن يتم إلا بالقبض على "زنوبيا" وغزو تدمر.وتحرك بأقصى سرعة خوفا من أن تتمكن الملكة العربية من تحصين مدينتها أولا أو أن تتصل بالفرس وبالقبائل العربية في البادية[57] ولم يكن طريق سير أورليان إلى

تدمر نزهة عسكرية.فقد عانى جيشه متاعب كثيرة من غارات الأعراب ومن الحر الشديد فلم يصل إلى المدينة إلاّ بعد أسبوع، وألقت جيوشه الحصار على تدمر[58]، وبدأ الحصار القاتل على المدينة الشجاعة التي قابلته بصبر وبطولة وبسخرية من مجلس شيوخ روما[59].

وبالرغم من أن "اورليان" أصيب بجرح من إحدى النبال وكذا مشقة الحصار، إلا أن السخرية وصلت مسامعه، فقال في خطاب له: <<إن الشعب الروماني يتحدث في استهزاء وسخرية عن الحرب التي أشنها ضد امرأة لكنهم يجهلون شخصية "زنوبيا" وقوتها، وانه من العسير إن تحصى معداتها الحربية، من الحجارة والسهام، كل أنواع القذائف، وكان كل جزء مزود باثنين أو ثلاثة من المجانيق للقذف بالحجارة، كما كانت النار الصناعية تقذف باللهب من كل جانب، كما ملأ الخوف من الحصار نفسها بشجاعة مستميتة، ومع كل هذا فإني لا أزال كبير الثقة في آلهة روما، تلك الآلهة التي كانت إلى جانبي في كل ما قمت به من أعمال >>[60].

وهناك رواية تذكر أن القيصر "اورليانوس" كتب كتابا إلى مجلس الشيوخ يقول:<< قد يضحك مني بعض الناس لمحاربة امرأة، ألا فليعلم أن "الزباء" (Zenobia) إذا قاتلت كانت أرجل من الرجال>> [61].

فلما رأى "أورليانوس" أن لا فائدة من الحصار وأن جنوده سيهلكون واحد تلوى الآخر بعث لها برسالة يطلب تسليم المدينة قائلا : << من القيصر "أورليانوس" ملك العالم الروماني وسلطان المشرق إلى زينب وأصحابها سلام:<< قد وجب عليك أن تفعلي من تلقاء نفسك ما أدعوك إليه بهذه الرسالة.وهو أن تخضعي للرومان وتستسلمي لي.فعلى هذا الشرط ليس ألا تنالين سلامتك وتستحقين عفوك.فإن فعلت يسمح لك مجمع الشيوخ الأعلى أن تعيشي أنت وعيالك في مدينة يعينونها لك.فسلمي إذن لبيت مالنا كل ما لديك من الجواهر والذهب والفضة والنسيج والخيول والجمال.وأنا أتعهد لك أني سأحفظ للتدمريين جميع حقوقهم>>.

فردت عليه: << من زينب سلطانة المشرق إلى "أورليانوس": << انَّ ما التمسته مني بكتابك لم يجرؤ أحد قبلك أن يطلب مني في رسالة ما طلبته . أنسيت أن الغلبة بالشجاعة لا بتدبيج الصفحات . إنك تطلب مني الاستسلام ، ألا تعلم أن كليوباترة آثرت الموت كملكة على أ ن تعيش بذلّ. ستأتيننا إمدادات من الفرس والأرمن والعرب لغل غرورك و كسر شوكتك، فتوقف عن طلب استسلامي كما لو كنت منتصرا في كل مكان>>[62].

و في محاولة منها قررت أن تذهب بنفسها إلى ملك الفرس لعله ينجدها بجيش يعينها على استرجاع بلادها، فنجحت في الوصول إلى ضفاف الفرات، غير أن فرسان الرومان أحاطوا بها، فقبضوا عليها و هي تهم بركوب زورق ينقلها إلى الضفة الشرقية من النهر[63]. وأعادوها إلى "أورليانوس" فلما رآها اقبل إليها يصيح بصوت عال : << صرت في قبضتنا يا زينب ألست أنت التي أدت بك الجسارة إلى أن تستصغري شأن قيصر روماني >> فأجابت : << نعم أقر لك الآن بكونك قيصرا و قد تغلبتَ عليَّ. وأما غاليانس وأوريولس وغيرهما فلست انظمهم قط في سلك القياصرة. وإنما بارتني فيكتورية في السلطنة والعزّ فلولا بعد الأوطان لعرضت عليها أن تشاركني في الملك>> [64]، فأثرت كلمات الملكة في نفس "أورليانوس" ، فمنحها الأمان[65]، ولم يعاقب الإمبراطور بالقتل سوى كبار قوادها و مستشاريها بعد محاكمة أجريت لهم بحمص[66].

أما تدمر ففتحت أبوابها لقيصر روما فدخلها "أورليانوس " دخول الظافرين[67]، في خريف عام (272م) أو في بداية عام(273م)، فعفا عن أهلها ووضع يده على غنائم كثيرة و على أموال المدينة و كنوزها نصب حاكما رومانيا عليها مع حامية عسكرية و غادر تدمر عائدا إلى روما [68]، و ما كاد "أورليانوس" يعبر المضايق التي تفصل بين أوربا و آسيا، حتى فوجئ بالأنباء التي تقول بأن أهل تدمر رفعوا راية العصيان من جديد و ذبحوا الحاكم و الحامية التي تركها هناك[69]. لم يضيع "أورليانوس " لحظة واحدة في الأخذ و الرد، بل عاد مسرعا فهاجم تدمر و دخلها و انتقم من سكانها بالقتل و الذبح أياما متوالية حتى كلت أيدي جنوده من ذلك، ثم أمر

فبعثرت البنية و قوضت الهياكل و دكت الأسوار و هدمت القلاع، فحل الخراب و الدمار على أرجائها[70].

و هناك رسالة "لأورليانوس" نفسه يعترف فيه بأن الشيوخ و النساء و الأطفال و الفلاحين، لم سلموا من الإعدام الرهيب الذي كان يجب أن يقتصر على المتمردين المسلحين[71]. و على الرغم من أن عنايته اتجهت إلى إعادة بناء معبد الشمس، فإنه استشعر شيئا من الشفقة نحو من بقي من أهل تدمر، فمنحهم ترخيصا في إعادة ترميم هذا المعبد و الأسوار، وفي بناء مساكنهم[72].

و بعد الانتصارات التي أحرزها الإمبراطور "أورليانوس"، و تمكنه من إعادة الاستقرار إلى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية، عاد إلى عاصمته روما، في عام 273 - 274 ميلادية و أضفى عليه لقب "معيد الشرق للرومان "[73] و ذلك في موكب إمبراطوري فخم اشترك فيه ألف و ستمائة مصارع (1600) و عدد كبير من الأسرى من مختلف الأقوام(العرب، الهنود، الفرس، القوط، والوندال) ومن بين السجناء ملك الغال تيتريكوس(Tetricus) وابنه، أما زنوبيا فقد كبلت في أصفاد من ذهب والأحجار، و قد امسك أحد العبيد بالسلسلة التي طوقت عنقها، و سارت على قدميها أمام العربة الفاخرة التي كانت تأمل يوما أن تدخل فيها أبواب روما[74]، و معها ابنها وهب اللات و بعض رعاياها[75]، و تبعتها عربتان: عربة أذينة زوج الزباء، و هي مزينة بالذهب والفضة و الجواهر، و عربة أهداها "هرمز بن سابور" إلى القيصر[76].وأمامه تمشي عشرين فيل مع حيونات مفترسة مدربة من ليبيا ومائتين من مختلف الحيوانات من فلسطين(زرافات، نمور...)[77].

فقد اختلف المؤرخون حول مقتل زنوبيا هناك من يذكر أن أورليانوس أسرها وأخذها إلى روما ثم أعدمت[78]، والبعض الآخر يذكر أن الإمبراطور أورليانوس(Aurelianus) كان رحيما بالأسرى حيث أهدى لزنوبيا فيلا جميلة في تيفولي، على بعد خمسة وعشرين ميلا من العاصمة.وتحولت الملكة السورية دون أن تشعر إلى امرأة رومانية وتزوجت بناتها من أسرات نبيلة، ولم يكن عنصرها قد انقرض بعد القرن

الخامس، إلا أننا نؤيد الرأي الآخر لأن من طبيعة الأباطرة الرومان أن يهينون أسرى الحرب وخاصة الملوك والأمراء، كما فعلوا بيوغرطة المغاربي وأرسطو بولس اليهودي وكليوباترا المصرية لولا انتحارها[79].

وهكذا انتهت مملكة تدمر ولم تبقى منها أطلال مدينتها: الشارع الكبير و المسرح و المعابد و المدافن، و غيرها من الهياكل التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا لتشهد بمآثر جميع الأجيال من العرب التدمريين الذين ساهموا بجهودهم و بأموالهم و بخبراتهم الفنية و التقنية في بناء تلك المدينة الرائعة، بكل رونقها و شموخها و جمالها [80]، و التي هزمها بل و دمرها الرومان، و قضوا على معالمها الحضارية في الثلث الخير من القرن الثالث الميلادي، و أخذت تتوارى منذ ذلك الحين عن المسرح السياسي و الحضاري و الثقافي [81].

كان من نتائج تدمير تدمر حدوث تغيرات مهمة في نظام الخطوط الدفاعية الرومانية أكثر من نتائج التغيرات التي حدثت بعد سقوط البتراء عاصمة الأنباط، ففي الوقت الذي كانت البتراء تحرس الصحراء و ترد غزوات البدو الرحل من شبه الجزيرة العربية[82]، كانت وظيفة تدمر تمثل قدرا أكبر من التعقيد في نظام الدفاع الروماني، فبالإضافة إلى حراسة الحدود الرومانية من غزوات بدو الصحراء ،كانت تدمر أيضا تشكل تحصينا ضد الفرس بقيادة شابور الذي اسر الإمبراطور "فاليريان" ، و الذي بدوره انهزم أمام أذينة التدمري[83].

ونستنتج من هذا أن سياسة الرومان ثم سياسة الروم من بعدهم استندت إلى قاعدة الاستفادة من العرب في حماية المواضع التي يصعب على الرومان أو الروم حمايتها والدفاع عنها، وذلك مثل تخوم الصحارى، وفي صد هجمات الأعراب المعادين أو الذين يدينون بالولاء للفرس، وفي مهاجمتهم أيضا ومهاجمة حلفاء أولئك الأعراب المعادين لهم وهم الفرس.

ونستنتج كذلك من أن سياسة الرومان التي انتهجتها في شبه الجزيرة العربية منذ استقرار نظام بومبي سنة 64ق.م لتأمين خضوع الأسر العربية الحاكمة ترك إدارة الإمارات بأيدي حكامها لتكون تابعة لها وتدين بالولاء لها، فبقيت بذلك مسؤولة عن

إمارة تدمر والرومان (64ق.م - 273 م)

الأمن الداخلي والدفاع ضد الهجمات التي يشنها عرب شبه الجزيرة العربية الرحل، وضد القوة الفارسية المتنامية، كما عملت سياسة روما على تأسيس قوة الحاميات والمستوطنات والكيانات السياسية، ثم تغيرت سياستها بحيث أصبحت تضم الإمارات العربية الواحدة تلوى الأخرى كضم مملكة الأنباط سنة 106م وإمارة تدمر سنة 272م ، وذلك لإحراز على أراضي شاسعة لتوسيع حدود الإمبراطورية الرومانية مع شبه الجزيرة العربية. وبالتخلص من الإمارات العربية التي كانت تقع بين الرومان والفرس تم تقريب الحدود إلى الحدود الفارسية مباشرة، وإقامة نظام التحصينات والقلاع على هذه الحدود وبذلك تقليم أظافر كل قوة متنامية في المنطقة.وهذا ما عملت عليه الإمبراطورية البيزنطية وريثة الإمبراطورية الرومانية وانتهجت نفس السياسة حيث استخدمت إمارة الغساسنة التي تقع على حدود الإمبراطورية البيزنطية فكانت ذرعا لصد هجمات المناذرة الموالين للفرس وصد غارات البدو، فأغدقت الرتب على ملكها حيث لقب الحارث بن جبلة الثاني الغساني لقب "فيلارخ" وبطريق ونصبه جستنيان سيدا على كل قبائل عرب الشام عندما قضى هذا الأخير على المنذر بن ماء السماء والذي كان يمثل رمز عظمة المناذرة، وهذا ما قام به الرومان مع "أذينة " ومنحوه لقب "Orientus Dux" التي تعني درجة قائد عام على جميع عساكر الشرق عندما هاجم الفرس وشتت شملهم، فكانت إمارة الغساسنة تتمتع بالاستقلال الذاتي والتبعية السياسية والعسكرية لروم، وعندما قوت شوكتهم وأصبحت تهاجم الأراضي البيزنطية محاولة إثبات كيانها كما فعلت إمارة تدمر قامت بيزنطة بتصفيتها والقضاء عليها وقامت بنفس الفعل مع إمارة كندة وضمت كل أراضيها إلى الإمبراطورية البيزنطية. وبذالك أصبحت روما القوى العظمى بدون منافس تسيطر على المنافذ التجارية العالمية وازدهرت وتطورت وأصبح الرومان يعيشون في رفاهية وبذخ بفضل الثروات التي تحصلوا عليها من التجارة العربية ومن الإمارات العربية التي قضت عليها.أما العرب فأصبحوا المخزون البشري التي استعملته روما في حروبها ضد الإمبراطورية الفارسية المنافسة لها.

ومازالت هذه السياسة منتهجة من طرف القوى الأجنبية أو القوى الكبرى لحد الآن حيث تتدخل تحت أي ذريعة كحماية الشعب من حكم الاستبداد أو تحت غطاء حماية الإنسانية بطريقة سلمية وليس عسكرية لكن فيما بعد تستعمل القوة بحجة حماية الضعفاء، وبتالي جعل البلاد تعيش في ثورات وفتن مستمرة بين سكانها وأزمة خانقة وهنا تتيح لها الفرصة لوضع موالين لها في الحكم وبتالي تكون البلاد خاضعة لها وتدين لها بالتبعية، إلا أننا إذا تمعنا في حقيقة الأسباب نجدها من اجل القضاء على القوة المتنامية والغير المنصاغة لها أو التي لا تدين لها بالولاء، وكله من اجل استنزاف ثرواتها الطبيعية والمتمثلة بالدرجة الأولى في الذهب الاسود، مثلما هو الحال لمنطقة الشرق، وبهذا تبقى لها سيادة العالم بدون منازع، والغريب أن أصحاب المنطقة هم من يساعدونها في تحقيق مآربها كما كانوا سابقا.

الهوامش:

1- أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، سوريا -بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية1991، ص217.

2- أبو اليسر فرح: أبو اليسر فرح: الشرق الأدنى في العصرين الهللينستي والروماني، عير للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر 2005 ، ص289.

3- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الاسلام، دار النهضة العربية، بيروت1975، ص151.

*- بالميرا (Palmyra) اسم تدمر ظهرت في المخطوطات البابلية التي وجدت في مملكة ماري، ويعني الاسم "بلد المقاومين" باللغة العمورية و"البلد التي لا تقهر" باللغة الآرامية لغة سورية القديمة، وتسمى باللاتينية { palmyra } واسمها باللغة الآرامية هو(ܬܕܡܘܪܬܐ، "تدمرتا" ومعناها المعجزة). المرجع :الموسوعة الحرة *ar.wikipedia.org/wiki*

4- جواد علي: ج3، المرجع السابق، ص86.

5- احمد امين سليم: المرجع السابق، ص219.

**- الأرشكيين: نسبة إلى مؤسسها أرشاك (ت نحو 248ق.م) هو أمير فرثي تغلب على السلوقيين وأنشأ سلالة الفرثيين الأشكانيين أو الأرشاكيين التي حكمت في ايران 250 ق.م- 224م. عاونه أخوه تيريدات ثم خلفه 224-214ق.م. المنجد في اللغة والأعلام، ط36، منشورات دار المشرق، بيروت 1997، ص38.

6- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، جامعة بغداد 1993، ص56.

7- زياد منى، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم، ط1، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت 2000، ص ص 115-126.

8- ابو اليسر فرح، المرجع السابق، ص170.

9- لطفي عبد الوهاب يحي، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، لبنان 2009، ص422.

10- Maurice Sartre, D'alexandre àZénobie,Histoire du levant antique IV siècle avj.c-III siècle apg.c,Librairie Arthène Fayard,2001,p971

11- علي فياض أكبر، تاريخ الجزيرة العربية والإسلام، ت.عبد الوهاب علوب، مركز النشر لجامعة القاهرة 1993، ص36.

12- Xavier lariot et danièl nony,La crise de l'empire romain 235-285,éd.Armand colin & masson,paris 1997,p90.

13- احمد أمين سليم، المرجع السابق، ص ص219-220.

14- هاشم يحي الملاح: الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 2008، ص165.

15- علي معطي: تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام، ط1، دار المنهل اللبناني، لبنان 2004، ص351.

16- احمد أمين سليم: المرجع السابق، ص220.

17- صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، 2003، ص54.

18- Yves Perrin, De la cité à l'empire,Histoire de Rome,ed.éllipses,Paris 1997 ,p371

19- Maurice Sartre,Op.Cit,p972.

20- Maurice Sartre,Ibid,p971-973

21- لطفي عبد الوهاب يحي، المرجع السابق، ص433.

22-جواد علي:ج3، المرجع السابق، ص82.

23- أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص222.

*- شابور الأول: شابور بن أردشير أو شابور الأوّل كان ملكاً ساسانياً في إيران وحارب الرومان مرتين: الأولى انتهت سنة 244 م بعد أن هزم شابور وعبرت جيوش الروم الفرات، وقاربت المدائن. و الثانية كانت بعد أربع عشرة سنة من الأولى وفيها أسر شابور الإمبراطور فاليان فبقى في الأسر حتى مات. المرجع: الموسوعة الحرة *ar.wikipedia.org/wiki*

***- فاليريانوس: (Valerianus)إمبراطور روماني 253-260م .أشرك أبيه غاليانس في حكم الغرب.اضطهد المسيحيين.أسره شابور الأول ملك الفرس وقتله.المنجد في اللغة والأعلام، المرجع السابق، ص404.*

24- Lucien jerphagnon, Histoire de la Rome antique les armes et les mots, éd.tallandier, 2002. ,*p437*

25- Xavier Lariot et Danièl Nony, La crise de l'empire romain 235-285,éd.Armand colin & masson,paris 1997 ,p91

26- Yves Perrin,Op.Cit,p371-372

27- صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص55.

28- أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص222

29- هاشم يحي الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الاسلام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2008، ص166؛ *Lucien jerphagnon,Op.Cit,p453*

30- Yves Perrin,Op.Cit,p371-372 ;Xavier Lariot et Danièl Nony,Op.Cit,p91

31- صالح احمد العلي، المرجع السابق، ص55.

32- لطفي عبد الوهاب يحي، المرجع السابق، ص434.

33- هاشم يحي الملاح،المرجع السابق، ص107؛ Xavier Lariot et Danièl Nony,Op.Cit,p91

34- ايلي مخائيل قطرميز، أثر التفاعل الحضاري، بين البيزنطيين والعرب في الأدب العربي، مكتبة السائح، طرابلس 2004 ، ص29.

35- علي معطي، المرجع السابق، ص356.

36- صالح احمد العلي، المرجع السابق، ص56.

37- ادوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها،ت.محمد علي ابودرة، ج1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص267.

38- احمد أمين سليم،المرجع السابق، ص225.

*- الأمبراطور **جاليانوس** : تولى الحكم من عام 253 إلى عام 260 في حكم مشترك مع الامبراطور فاليريانوس ، وأنفرد بالحكم عام 260 حتى عام 268 م

39- عبد المنعم الهاشمي: ج1، موسوعة تاريخ العرب، م1، دار ومكتبة الهلال، لبنان 2006 ، ص179.

**- بروبوس: ولد حوالي 232م في سيرميوم(Sirmium) في بانونيا (Pannonie)، قائد محنك هازم الغاليين. Xavier Lariot et Danièl Nony,Op.Cit,p100-102

40- Yves Perrin,Op.Cit,p372

41- على معطي، المرجع السابق، ص359.

42- عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص179.

43- هاشم يحي الملاح، المرجع السابق، ص168.

44- Xavier Lariot et Danièl Nony,Op.Cit,p146

45- ادوارد جيبون، المرجع السابق، ص269.

46- احمد امين سليم،المرجع السابق ، ص226.

*- أورليانوس (Aurelianus) : امبراطور روماني 270-275م.أسر زنزبيا ملكة تدمر وجاء بها الى روما.المنجد في اللغة والأعلام: المرجع السابق، ص83.

47- Yves Perrin,Op.Cit,p372

48- عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص180.

49- محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية1999، ص554.

50- علي معطي، المرجع السابق، ص360.

51- محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص555.

52- جواد علي، ج3، المرجع السابق، ص119.

53- احمد امين سليم، المرجع السابق، 227.

54 محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص556.

55- علي معطي، المرجع السابق، 360.

56- Lucien Jerphagnon,Op.Cit,p454

57- احمد أمين سليم، المرجع السابق، 229.

58- علي معطي، المرجع السابق، ص ص 360-361.

59- محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 557.

60- ادوارد جيبون، المرجع السابق، ص271.

61- جواد علي، ج3، المرجع السابق، ص120.

62- مجلة المشرق، ج23، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، سنة الأولى 1898، ص1058.

63- السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر 2011، ص184

64- مجلة المشرق، ج23 المرجع السابق، ص1058.

65- جواد علي، ج3، المرجع السابق، ص 123.

66- توفيق برو ، تاريخ العرب القديم، ط1، دار الفكر، دمشق 1984.ص120.

67- حسين الشيخ ، العرب قبل الإسلام ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2000، ص 155.

68- محمد سهيل طقوش ، تاريخ العرب قبل الإسلام، ، دار النفائس، لبنان 2009، ص379.

69- ادوارد جيبون ، المرجع السابق، ص 273؛ Yves Perrin,Op.Cit, p373

70- مجلة المشرق،المرجع السابق، ص1060.

71- ادوار جيبون ،المرجع السابق،ص .273

72- علي معطي ، المرجع السابق ، ص363 ؛ جيبون ، المرجع السابق، ص 273-274.

73- حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضارته، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1997، ص 300

74-جيبون ، المرجع السابق ، ص 276؛ Xavier Lariot et Danièl Nony,Op.Cit,p99-100

75- محمد السهيل طقوش ، المرجع السابق ،ص 379

76- جواد علي،ج3 ، المرجع السابق ، ص126.

77- Xavier Lariot et Danièl Nony,Op.Cit, p99-100

78- Lucien Jerphagnon,Op.Cit, p454.

79- جيبون، المرجع السابق ، ص ص 276-277.

80- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ،ص185.

81- علي معطي، تاريخ، المرجع السابق ، ص364 .

83-عرفان شهيد، روما و العرب، ت.قاسم محمد سويدات، ط1، دار ديوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2008، ص 74.

- مجلة المشرق، المرجع السابق، ص 106

أ/ رمضاني أم هاني